بقلم
الاستاذ وديع صبرا
مدير مدرسة الموسيقى الوطنية

٢

لا شيء اوفر تأثيرًا من ترنم المؤذن عند السحر !

لا شيء افعل في الحس من الاغاني القديمة « كالميجانا » و« العتابا » فهي تجسمات الشرق بكل ما فيه من حسن وجمال.

واي شيء اشد وقعاً في النفس من نبرات « البغدادي » القوية ، التي تتجاوب اصداؤها بين قمم جبالنا ؟ واي شيء اغنى من تلك التلحينات الشرقية التي تتباين مداها وليّاتها الى ما لا نهاية له ، ومن تلك الاصوات التي لا يعاكس المغني شيء من القواعد والاصول ، في التصرف بنغماتها ما شاء ، وكيف شاء؟

وايّ شيء اظهر شخصيةً من ذاك التعليق الشرقي الذي يسمح للفنان ان يوقع المقطع الموسيقي كما يريد حسب تأثير الظروف ، فيعطي للتوقيع صفةً غايةً في المرونة ؟

وقد امتاز واضعو الالحان من الشرقيين بتمهيد السبيل لحرية التنغيمات . فجعلوا لألحانهم طريقةً عجيبة يسير عليها المغني في اول اللحن ، وفي وسطه ، وفي آخره . وكذلك القول عن الترنيمات فانها كثيرًا ما تكون وافرة وغنيّة بفضل الأبعاد بين انصاف الابراج المختلفة.

وعليه فان الموسيقى الشرقية ، اذا ما سمعناها من مغنٍ واحد ، تجذب حواسنا ، وتذهب بنا كل مذهب. لان ما فيها من اختلاف الأبعاد بين انصاف الأبراج يسرّ جميع الآذان كما سنرى . على ان مجموع الآلات الشرقية ، او

النوبة ، تظهر حافلةً بالكثير من النواقص . فهي خليط من الألحان المتنافرة تشمئز منها الآذان المثقفة فلا تُقرّها بسهولة . ولهذا فان جدول قطع النوبة هو هو دون تنوّع ، لأن الضاربين او النافخين يحفظونه دون الاستعانة بالعلامات الموسيقية . وفضلًا عن ذلك فان آلاتنا الوترية لا تُدوزَن غالباً حسب درجة اشتداد الوتر ، او توتّره ، بل وفقاً لصوت المغنّي ، فتفقد الآلة بهذه الطريقة حدّة (timbre) نغماتها .

وما ابعد « الناي » الشرقي ، وهو آلة من القصب ، عن دقّة الشبابة البرهمية ! فان آلتنا القصبية لا يمكنها ان تعطي نغمات صحيحة من حيث علم الطبيعيات[1]

وفي القانون ايضاً ، الذي يمكننا تسميته بالبيانو الشرقي ، نقائص عديدة سأشير اليها . ولكن ما لي وللتوقف عند هذه النقائص ، فلأذكر الدواء حالًا

يلزمنا اولًا ان نقرّ مبدئياً انه من الواجب علينا الحصول على العقلية « الموسيقية » واحترام القوانين العلمية التي لا يمكن ان تقاوَم . ومن ثمّ فالواجب علينا ان نُخضع صناعتنا الموسيقية للاصول والقواعد الطبيعية . فيلزمنا ان نبدأ اليوم بما بدأت به اوربة من مائتي سنة ، اي بجعل التعليم الموسيقي اجبارياً في كل المدارس . افلا يكون موافقاً ان يوضع في كل مدرسة رسمية آلة بيانو يُمرَّن عليها التلامذة ، فيؤلف منهم صفوف ابتدائية للموسيقى الصوتية ؟ عند ذاك نرى كثيراً من المواهب تظهر وتزدهر ! عند ذاك نشاهد كثيراً من الشبّان يتخصّص بعضهم بدرس علم الموسيقى ، وبعضهم بدرس طبيعة الصوت ، وبعضهم يتوافدون على مدرسة الموسيقى الوطنية ، متخصّصين بالعزف على الآلات المختلفة . ثم يؤمّون المراكز الموسيقية المختلفة فيتخرّجون على معلّميها . فيصيرون بحقّ اساتذة الغد ، مَن يُناط بهم عن جدارة مستقبل الفن الموسيقي في الشرق .

* * *

اما وقد وطّأنا بتلك المقدّمات عن الموسيقى الشرقية ، فلننتقل الى درس

١) لا يخفى ان الطبيعيين يميّزون في كل نغمة ثلاث صفات هي : الثِقَل ، والحِدّة ، وعدد الاهتزازات . فاذا فقدت النغمة احداها كانت غير صحيحة طبيعياً (المشرق)

الديوان الموسيقي : قسمَ اليونان ديوانهم الى ٦٨ جزءاً ؛ فجعلوا للبُعد الرباعي (quarte) ٤٠ جزءاً ، وللبعد الخماسي او النَّاز كما يسمّيه مؤلفونا الاقدمون (quinte) ٥٠ جزءاً ؛ وكان عندهم الرقم ١٢ يمثل البرج الكامل ، والرقم ٣ ربع البرج . على اني لست لأتوقف لدى هذا التقسيم الذي ظلَّ نظرياً اذ لم يُعرف لهُ تطبيق عملي يُذكر . بل انتقل الى ديوان فيثاغورس . وهو يؤلّف اولاً من برجين اكبرين وبُعدٍ اصغر من نصف البرج العادي سمّاه « ليما » (limma) ، ويسمّيه مؤلفونا «الفضلة» ؛ ثم من ثلاثة ابراج كبرى وفضلة . وبين البرج والآخر فضلتان واحدة مرتفعة والثانية منخفضة . فيكون مجموع النغمات المستخرجة بالابراج المختلفة ١٧ في الديوان كلّه .

اما الديوان الطبيعي فهو الحاصل لنا ، اذا قسمنا طول الوتر الذي اخترناه[1] على الارقام ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ... الى ما لا نهاية لهُ . فينتج لنا ، والحالة هذه ، مجموعة مؤلفة من ٨ ابراج ، ثم من ١٦ ، ثم من ٣٢ ، الى آخر ما هنالك .

وهناك ديوان يُنسب الى زَرْلَن (Zarlin) يُبتدأ فيه ببرج أكبر ثم ببرج أصغر ، فنصف برج ، ثم بثلاثة ابراج يليها نصف البرج . وهذه الطريقة أُسّ نظرية الموسيقى العصرية . ولكنها عُدّلت اليوم بما يسمّونه الديوان المعتدل (gamme tempérée)

وشبيهٌ بديوان فيثاغورس الديوان التركي الذي يؤلف من الابراج نفسها ، ويزاد فيه برج اصغر قبل كل برج أكبر ، مما يجعل في المرتبة (octave) ٢٤ برجاً او نغمة . هذا ولا يستعمل الاتراك ابراجاً اصغر من البرج الاصغر . فيكون ان موسيقاهم تقصر جداً عن الوصول الى جمال موسيقانا في انغامها المختلفة .

وها نحن نصل الى الديوان العربي . فهو يتألف ، على قول اصحاب النظريات الموسيقية عندنا ، من ٢٤ ربعاً من البرج . وقبل ان نفند البراهين المؤيدة لاستعمال ربع البرج ، رَى من اللازم ان نقف على آراء ارباب هذا العلم في

---

١) راجع العدد الثاني من المشرق ، ص ١٦

عصرنا فنقول :

لقد قسم السيد اسكندر شلفون البرجَ الى اربعة اجزاء متساوية ، محافظاً ، في مرتبته على صحة البُعدين الرباعي والخماسي او التمّاز . ثم قال انه يجدر بنا اعتبار هذا التقسيم كالديوان العربي القانوني المضبوط . على انه يُقرّ ان بعض النغمات لا توافق هذا الديوان .

هذا وان الاب كولنجيت ، بعد ان لخص ابحاثه في هذا الموضوع ، قال : ان الابراج الاساسية في الديوان العربي هي من نوع الابراج الكبرى . اما ارباع الابراج الباقية فتظهر كأنها أُدخلت في سبيل التنسيق والترتيب في اقسام المرتبة .

ونحن ، اذ اردنا توقيع جميع النغمات الشرقية حسب مرتباتها المختلفة على آلتنا الموحّدة الوتر ، تحققنا انه من المستحيل استعمال ربع البرج الحقيقي . فلو اردنا مثلاً تحقيق موقع نغمة « العراق » ، وقياسها $\frac{3}{4}$ البرج ، على وتر يبلغ طوله المتر الواحد ، لكان ذاك الموقع حسب الحساب الرياضي الدقيق بـ ١٨,٣٢ سنتيمترًا والحالة ان تلك النغمة تقع ، في ديوان كولنجيت ، اعلى منها بليسترين اي بـ ١٨,٥٢ سنتيمترًا ، فتؤلف $\frac{11}{12}$ من طول البرج . وسنرى انه لا يمكن استعمال نغمة بهذا الانخفاض الّا نادرًا وبكل تحفّظ . اما ربع البرج الحقيقي ، كالنغمة «قب نيم حصار» مثلاً التي تُقرَّر ، في ديوان كولنجيت ، بـ ٢,٧٨ سنتيمترًا وفي ديوان شلفون ، بـ ٢,٩٠ سنتيمترًا ، فلم يمكن استعمالها في احد الانغام الشرقية المعروفة . على ان السيد الحلمي ، وهو مؤلف كتاب في الموسيقى الشرقية ، يذكر في ديوان خاصّ به ، ان نغمة « العراق » تعادل $\frac{11}{12}$ من طول البرج عوضاً عن $\frac{3}{4}$

وهنا اتوقف قليلاً كي ادرس بدقّة الديوانين اللذين اراهما ارزن واثبت ، واجدر بالانتباه من غيرهما ، وهما ديوان حضرة الاب كولنجيت وديوان السيد اسكندر شلفون :

اذا استعملنا كأسّ لقياس الابراج ، وترًا طوله مترٌ واحد ، كانت اول نغمة من الديوان «يكاه» ، وهي تكون بالوتر الكامل دون حبس . ثم تأتي باقي النغمات كما في الجدول التالي :

النغمات	في ديوان كولنجيت سنتمتر	في ديوان شلفرن سنتمتر
قب نيم حصار	٢ ٧٨	٢ ٩٠
حصار	٥ ٠٨	٥ ٧١
تيك حصار	٨ ٣٤	٨ ٤٤
عُشيران	١١ ١١	١١ ١١
نيم عجم	١٣ ٥٨	١٣ ٦٠
عجم	١٥ ٦٢	١٦
عراق	١٨ ٤٨	١٨ ٣٢
نيم كَوَشت	٢٠ ٩٩	٢٠ ٦٠
تيك كَوَشت	٢١ ٨١	٢٢ ٨٢
رَست (رصد)	٢٥	٢٥
نيم زِرْكُلاه	٢٧ ٠٨	٢٧ ١٥
زِرْكُلاه	٢٨ ٨١	٢٩ ٢٥
تيك زِرْكُلاه	٣١ ٢٥	٣١ ٣١
دوكاه	٣٣ ٣٣	٣٣ ٣٣
نيم كردي	٣٥ ١٨	٣٥ ٢٨
كردي	٣٦ ٧٢	٣٧ ١٥
سيكاه	٣٨ ٨٩	٣٨ ٩٧
نيم بوسليك	٤٠ ٧٤	٤٠ ٧٤
بوسليك	—	٤٢ ٤٣
چهاركاه	٤٣ ٧٥	٤٤ ٠٦
نيم حجاز	—	٤٥ ٦٣
حجاز	٤٧ ٣٢	٤٧ ١٤
تيك حجاز	—	٤٨ ٥٩

(للبحث صلة)